اتِّساع الدولة السعودية
خارج نجد

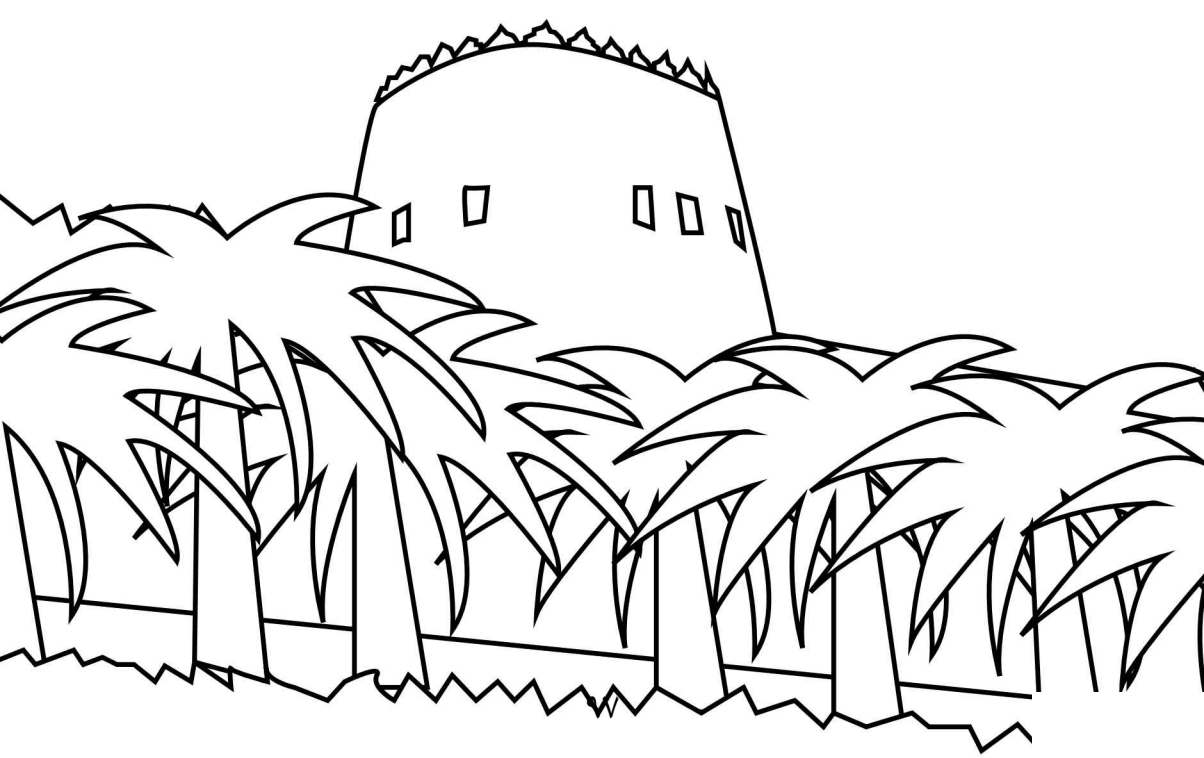

١- شرقي البلاد:

اتَّخذ زعماء بني خالد، حكام الأحساء، موقفًا عدائيًّا من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وقادة الدرعية قبل قيام الدولة السعودية الأولى. فقد هاجم الزعيم الخالدي سعدون بن محمد بن غُرَيرْ الدِّرْعيَّة سنة ١١٣٣هـ. وكان أخوه سليمان وراء إخراج الشيخ محمد من العُيَينة، كما سبق أن ذُكِر. ولقد كان متوقعًا أن يقوم الزعماء الخالديون بأعمال عدائية ضد الدولة السعودية، التي جمعت بين أعدائهم من آل سعود وقائد الدعوة الإصلاحية. ولهذا، فإنهم ما إن وجدوا الفرصة سانحة للقيام بتلك الأعمال حتى اغتنموها. وكانت بداية غزواتهم للدولة المذكورة سنة ١١٧٢هـ. واستمر زعماء بني خالد يَستغلُّون كل فرصة مواتية للنيل من الدولة السعودية، وذلك بغزوها حينًا، وتأييد معارضيها في نجد حينًا آخر.

ومضت مدة غير قصيرة والزعماء الخالديون في موقف المهاجم في نزاعهم مع قادة الدولة السعودية. لكن جميع محاولاتهم للقضاء عليها أو إيقاف مَدِّها باءت بالفشل. وظَلَّت تحرز انتصارًا بعد انتصار داخل نجد.

وفي أواخر القرن الثاني عشر الهجري تَغيَّر ميزان القوة بين الدولة السعودية وزعماء بني خالد. فأصبحت تلك الدولة في موقف المهاجم، وبات أولئك الزعماء في موقف المدافع، ومن الواضح أن أهم أسباب هذا التَّغيُّر أن الدولة السعودية أصبحت قاب قوسين أو أدنى من توحيد نجد كلها، وأن الصراعات الداخلية على السلطة تَجدَّدت بين زعماء بني خالد.

وفي عام ١١٩٨هـ بدأ قادة الدِّرْعيَّة جهودهم للاستيلاء على الأحساء[١]. ومن أعظم دوافعهم إلى إدخال تلك المنطقة تحت نفوذهم:

---

(١) ابن غنَّام، ج٢، ص١٢٠.

أ- أن حكام الأحساء ناصبوا الدولة السعودية العداء فترة طويلة، وقاموا بغزوها مرّة تلو أخرى.

ب- رغبة قادة تلك الدولة في نشر الدعوة الإصلاحية التي آمنوا بها؛ وبخاصة أن شرقي الجزيرة العربية كانت توجد فيه بعض المذاهب التي لا تَتَّفق مع مبادئ الدعوة المذكورة.

ج- الشعور الطبيعي لدى قادة كل دولة فتية تعتقد أنها قادرة على توسيع نفوذها.

د- الأَهميَّة الاقتصادية للمنطقة الشرقية من الجزيرة العربية؛ سواء بالنسبة لثروتها الزراعية أو بالنسبة لموقعها على الخليج بما في ذلك من موانئ تجارية وفرص عمل في المجال البحري.

هـ- أن المنطقة كانت حينذاك مستقلة عن الدولة العثمانية التي كان القادة السعوديون يتحاشون الصدام معها في تلك الفترة. وكان أولئك القادة يدركون هذا الوضع غاية الإدراك بدليل ما ذكره سعود بن عبدالعزيز في رَدِّه على رسالة علي باشا، مساعد والي بغداد، حينما قام بحملته على تلك المنطقة سنة ١٢١٣هـ[١].

وكانت أول غزوة يُوجِّهها آل سعود للاستيلاء على الأحساء تلك التي قادها سعود بن عبدالعزيز سنة ١١٩٨هـ، ونجح في كسب كثير من المواشي والأمتعة[٢]. وفي عام ١٢٠٠هـ ثار دُوَيْحِس بن عُرَيعر على أخيه سعدون، وانضم إليه قسم من بني خالد، كما انضم إليه رئيس قبيلة المنتفق، ثُويني بن عبدالله. وتقابل سعدون مع المتحالفين ضده فهزموه. ولم يجد أمامه ملجأ يَتَّجه إليه إلا

---

(١) رسول الكركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوراء، ترجمة من التركية إلى العربية موسى كاظم نورس، بيروت ١٣٨٥هـ، ص٩.

(٢) ابن بشر، ج١، ص٩٦.

الدِّرْعيَّة. ولقد تَردَّد عبدالعزيز بن محمد في إيوائه خوفًا من أن تسوء العلاقة بين دولته ورئيس قبيلة المنتفق. لكنه آواه في ناهية الأمر بمشورة من الشيخ محمد بن عبدالوهاب[1].

وفي سنة ١٢٠٢هـ وصلت القوات السعودية إلى الأحساء بقيادة سليمان بن عُفَيصان مرتين، هاجم في الأولى منهما قرية الجِشَّة، وهاجم في الثانية ميناء العُقَيْر[2]. وفي السنة التالية توجه سعود بن عبدالعزيز بقوته إلى الأحساء، حيث وصل إلى البلدة المُبَرَّز. ثم تركها بعد مناوشات قصيرة، واتَّجه إلى قرية الفُضُول، فاتَّخذ ضدها إجراءات قاسية جدًّا، ثم عاد إلى الدِّرْعيَّة[3].

وفي عام ١٢٠٤هـ تَوجَّه سعود بن عبدالعزيز بقوات كبيرة إلى المنطقة الشرقية لمحاربة قبيلة بني خالد. وكان معه زيد بن عُرَيعر. وحين تقابل مع القوات الخالدية هزمها، وعَيَّن زيدًا قائدًا لتلك القبيلة بعد أن فرَّ أخوه دُوَيحس وخاله عبدالمحسن بن سِرْداح إلى قبيلة المنتفق[4]. على أنه من الواضح أن بلدان المنطقة الشرقية لم تدخل كلها تحت النفوذ السعودي نتيجة لهزيمة بني خالد. ولَعلَّ مما يوضح ذلك أن سعود بن عبدالعزيز قام بغزو المنطقة المذكورة سنة ١٢٠٦هـ حيث هاجم القطيف، وأنزل بها خسائر فادحة[5].

ولم تكن سيرة زيد بن عُرَيعر على ما يرام. فقد أرسل إلى عبدالمحسن بن سِرْداح يطلب منه الرجوع إلى قومه، ويَعِده بأن يتنازل له عن رئاسة قبيلة بني خالد. وحين رجع عبدالمحسن من المنتفق غدر به زيد وقتله.

---

(١) ابن غنَّام، ج٢، ص١٢٤ - ١٢٥؛ ابن بشر، ج١، ص٩٨.

(٢) ابن غنَّام، ج٢، ص١٢٦ و١٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٠ - ١٤١.

(٤) ابن بشر، ج١، ص١٠٥ - ١٠٦.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص١١٠.

وغضبت القبيلة الخالدية على زيد، فثارت ضده بزعامة بَرَّاك بن عبدالمحسن. وقد هَبَّ سعود بن عبدالعزيز لمحاربة بني خالد، والتقى بِبرَّاك ومن معه، فهزمهم هزيمة عظيمة. وهرب بَرَّاك إلى المنتفق[1].

وكان من نتائج المعركة السابقة أن أدرك أهل الأحساء ما تنطوي عليه معارضة سعود من أخطار. وحين اقترب من بلدانهم طلبوا منه الأمان، وأعلنوا ولاءهم له. غير أنهم ثاروا بعد مغادرته المنطقة، وقتلوا محمدًا الحملي، الأمير الذي عَيَّنه عليهم، كما قتلوا مدير بيت المال، والمرشدين الذين تركهم هناك؛ لوعظ السكان، وتعليمهم أصول الدين، وفق ما نادى به الشيخ محمد بن عبدالوهاب. ثم قدم زيد بن عُرَيعر إليهم، وتَولَّى قيادتهم ضد الحكم السعودي[2].

وحين علم سعود بن عبدالعزيز بما حدث في الأحساء تَوجَّه بقوات كبيرة إلى هناك، وأخذ يوالي ضرباته الشديدة ضد مدن المنطقة وقراها. وكان بَرَّاك بن عبدالمحسن قد عاد من قبيلة المنتفق والتحق بسعود ومن معه. ولَعلَّ مما دفعه إلى ذلك أن زيد بن عُرَيعر، خصمه السابق، أصبح ضد آل سعود. وحين اشتدت وطأة سعود وقواته على أهل الأحساء، أوعزوا إلى بَرَّاك أن يطلب منه الانسحاب من المنطقة على أن يدخلوا في طاعة الدولة السعودية بعد انسحابه. وقد نجحت محاولة بَرَّاك بمساعدة بعض قادة الجيش السعودي في إقناع سعود بالانسحاب. ثم قدم بَرَّاك إلى الإمام عبدالعزيز بن محمد ليأخذ منه أمانًا لأهل الأحساء، ووافق الإمام على ذلك[3]. وحينما رجع الزعيم الخالدي إلى المنطقة

---

(١) ابن غنَّام، ج٢، ص١٥٨ - ١٥٩؛ ابن بشر، ج١، ص١١١ و١٢٨.

(٢) ابن غنَّام، ج٢، ص١٥٩ - ١٦٤؛ ابن بشر، ج١، ص١٢٨ و١٢٩.

(٣) ابن غنَّام، ج٢، ص١٦٦ - ١٦٧؛ ابن بشر، ج١، ص١٣٠ - ١٣١. لكن آل عبدالقادر (ج١، ص١٣٤) يذكر أن أهل الأحساء أوفدوا برَّاكًا إلى الإمام، ليصالحوه على أن يدخلوا في طاعته مقابل أمره ابنه بالانسحاب، فوافق الإمام على ذلك، وأمر ابنه بالانسحاب.

مؤملًا أن يفي أهلها بما تَعهَّدوا به، انقسموا إلى مُؤيِّد للحكم السعودي ومعارض له. واستنجد بَرَّاك بآل سعود، فأرسلوا إليه نجدة بقيادة إبراهيم بن عُفَيصان. وتَمكَّن من إجبار زيد بن عُرَيعر ومن معه على مغادرة المنطقة، والاستيلاء عليها. وهكذا أصبحت الأحساء جزءًا من الدولة السعودية، وذلك سنة ١٢٠٨هـ، وأصبح بَرَّاك بن عبدالمحسن واليًا عليها من قِبَل تلك الدولة[١].

على أن بعض أعيان المنطقة الشرقية لم يخلدوا إلى الراحة. فقد ثاروا على الحكم الجديد سنة ١٢١٠هـ بممالأة من بَرَّاك بن عبدالمحسن نفسه. واستنجد الموالون لآل سعود في المُبَّرز بقادة الدِّرْعيَّة، فبعثوا إليهم نجدة مع إبراهيم بن عُفَيصان. ثم اتَّجه إلى المنطقة سعود بن عبدالعزيز ومعه قوات كبيرة. واتخذ ضد الثائرين إجراءات صارمة. وحين أخضعهم عاد إلى الدِّرْعيَّة ومعه عدد من زعماء بني خالد. ووَلَّى على المنطقة أميرًا من عامة سكانها[٢].

وكان لاستيلاء آل سعود على الأحساء نتائج عظيمة من أَهمِّها:

أ- أن دائرة نفوذ الدولة السعودية اتَّسعت اتِّساعًا كبيرًا، مما زاد في هيبتها السياسية وقدرتها العسكرية.

ب- أن الطرق أصبحت مُمهَّدة أمام دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الإصلاحية لتنتشر بين سكان المنطقة الجديدة من الدولة.

ج- أن الجهات الخارجية التي لها مصالح في الخليج العربي بدأت تهتم بأمر الدولة السعودية، وتقيم وزنًا كبيرًا لها. ومن هذه الجهات شركة الهند الشرقية البريطانية، والحكومة الفارسية.

---

(١) ابن بشر، ج١، ص١٣٠ - ١٣١.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٦ - ١٣٧.

د- أن الدولة السعودية أصبحت ذات حدود مع بقية إمارات الخليج العربي، ومع الدولة العثمانية مُمثَّلة في باشوية بغداد. وبات لا مَفرَّ لها من التعامل مع تلك القوى سياسيًّا وعسكريًّا.

هـ- أن الدولة السعودية تَمكَّنت من الوصول إلى البحر، فأصبح في إمكانها أن تستورد ما تحتاج إليه من بضائع خارجية بطريقة مباشرة، وأصبح لدى مواطنيها القدماء فرصة للعمل في البحر. على أن أَهمَّ من هذا كله أن استيلاءها على المنطقة الشرقية أضاف إلى رقعتها منطقة زراعية خصبة، زاد إنتاجها الخزينة العامة للدولة ثروة وغنى.

٢- الحجاز:

كان لأشراف مكة- كما سبق أن ذُكِر- نفوذ في بعض الأقاليم النجدية قبل قيام الدولة السعودية الأولى. لكنه كان يضعف تدريجيًّا لتلاشي قوة الدولة العثمانية، التي يتبع أولئك الأشراف لها من الناحية الرسمية، في جزيرة العرب، ومنافسة النفوذ الخالدي له. وكان من الطبيعي أن يهتم أولئك الأشراف بظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد، ثم بقيام الدولة السعودية على أساسها.

وتختلف المصادر حول الطريقة التي وصلت بها أخبار الدعوة الإصلاحية النجدية إلى الحجاز. فالمؤرخ المكي، أحمد دحلان، يقول: إن الوهابيين- يعني قادة الدعوة- أرسلوا ثلاثين عالمًا إلى مكة في عهد الشريف مسعود بن سعيد (١١٤٦ - ١١٦٥هـ). وحين باحثهم علماء هذه المدينة، الذين كانوا قد سمعوا بظهور ابن عبدالوهاب، تَحقَّقوا جهلهم. وبعد إقامة الدليل عليهم كَفَّرهم قاضي الشرع وحُبِسوا. ثم منعهم أشراف الحجاز بعد ذلك من الحج[1].

(١) خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، القاهرة، ١٣٠٥هـ، ج٢، ص٢٢٧ - ٢٢٨.

وما ذكره دحلان يحتاج إلى مناقشة. فعدد العلماء الذين قال: إنهم أُوفدوا، من المستبعد أن يكون حقيقيًّا، لأن الدعوة كانت حينئذاك في بدايتها، ولأنه لا داعي لإكثار العدد إلى هذا الحد على أَيِّ حال. ولو أُرسِل وفد من هذا النوع- مهما كان عدد أفراده- لما ترك ذكره ابن غنَّام الذي كان يحرص كل الحرص على تدوين ما له علاقة بالأمور الدينية من حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ودعوته.

أما المؤرخ التركي، سليمان عِزِّي، فيذكر في حوادث سنة ١١٦٣هـ أن شريف مكة أخبر السلطنة العثمانية بظهور الشيخ ابن عبدالوهاب في نجد، وأنه سمع أن العلماء في جهته بدأوا يتبعونه، وأنه استشار علماء مكة بشأنه، فأشاروا عليه أن يحاول إقناعه بالعدول عن رأيه. فإن رفض ذلك فيجب قتاله. وعندما لم يَردَّ ابن عبدالوهاب على رسالة الشريف قبض على ستين رجلًا من جماعته في موسم الحج، ونكل بهم. ثم نفاهم إلى بلادهم[١].

وواضح من رواية عِزِّي أن معلومات شريف مكة عن دعوة الشيخ محمد مبنية على السماع. وفي رواية دحلان. أيضًا ما يُؤيِّد ذلك. ولقد أشار ابن غنَّام إلى ما قام به بعض العلماء النجديين المعارضين لدعوة الشيخ من تشويه لحقيقتها في الحجاز[٢]. ولذلك فإنه من المرجح أن تلك الدعوة قد وصلت إلى الأشراف، أَوَّل الأمر، مُشوَّهة عن طريق خصومها في نجد.

ورواية عِزّي تفيد، أيضًا أن الذين سجنهم شريف مكة لم يكونوا وفدًا من العلماء. وهذا ما تُؤيِّده رواية ابن بشر من أن ذلك الشريف سجن حجاج

---

(١) **تاريخ عزّي**، القسطنطينية، ١١٩٩هـ، ص٢٠٧، وهذا الكتاب تاريخ الدولة العثمانية من سنة ١١٥٧ إلى ١١٦٥هـ. ولعلَّه أول مصدر تاريخي تركي يشير إلى دعوة الشيخ محمد. أما أخبار الدعوة فقد وصلت إلى العراق والحجاز التابعين لتلك الدولة قبل ذلك، وكتبت فيهما ردود ضدها.

(٢) بن غنَّام، ج١، ص٣١ و١٦٠ - ١٦١.

نجد سنة ١١٦٢هـ[١]. وهذا المؤرخ النجدي يقصد، بطبيعة الحال، أن المسجونين كانوا من أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب. ومن المحتمل أنه كان من بين أولئك الأتباع من دفعتهم حماستهم للدعوة إلى الجهر بمبادئها في موسم الحج. ولَعلَّهم كانوا غير مؤهلين من الناحية العلمية لإزالة الصورة القاتمة التي سبق أن بَثَّها في الحجاز معارضو الدعوة من النجديين. فلم يكن غريبًا إذًا أن يَتَّخِذ الشريف حيالهم ما اتَّخذه من إجراءات ظالمة.

وتَتَّفق المصادر على أن الشريف مسعود بن سعيد منع أنصار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب من أداء الحج. وموقفه هذا موقف عدائي واضح. وقد سار خليفته، أخوه مساعد، على نهجه. على أنه في آخر عهد مساعد حدثت حادثة مَهَّدت الطريق أمام السعوديين للحج. ففي سنة ١١٨٣هـ عثرت كتيبة سعودية في عالية نجد على جماعة من الحجازيين بقيادة الشريف منصور. وحين أُحضِروا إلى الدِّرْعيَّة أكرمهم عبدالعزيز بن محمد غاية الإكرام، وأطلق سراحهم دون فدية. وبعد ذلك قدم منصور ومعه إذن من شريف مكة للسعوديين بالحج[٢].

ولما تَولَّى شرافة مكة أحمد بن سعيد، سنة ١١٨٤هـ، تَحَسَّنت العلاقات بينه وبين قادة الدِّرْعيَّة؛ إذ طلب منهم بعد تَولِّيه بسنة أن يبعثوا عالمًا من علمائهم يُبيِّن لعلماء مكة حقيقة ما يدعون إليه. فأرسلوا إلى هناك الشيخ عبدالعزيز الحُصَيِّن. وتناقش هذا الشيخ مع أولئك العلماء حول مسائل مُهمَّة من أصول الدعوة. ثم عاد إلى الدرعية مُعزَّزًا مكرمًا[٣].

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٣٧.

(٢) ابن غنَّام، ج٢، ص٧٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٨٠ - ٨١. وقد أرسل الشيخ محمد مع الحُصَيِّن رسالة إلى الشريف أحمد أورد نصها ابن غنَّام حينما تكلم عن هذه الحادثة.

وعلى أَيِّ حال، فإن عمر العلاقات الحسنة بين الدِّرْعيَّة ومكة كان قصيرًا جدًّا. ذلك أنه لم يمض عام واحد على وفادة الحُصَيِّن إلا وقد أُبعِد الشريف أحمد عن الحكم[1]. وحَلَّ مَحلَّه ابن أخيه، سرور بن مساعد، الذي قضى على محاولة التفاهم بين الطرفين الشريفي والسعودي، فعادت العلاقات بينهما إلى سباق سوئها. ولم يُسمَح لأتباع الدِّرْعيَّة بالحج إلا سنة ١١٩٧هـ بعد أن تَودَّد قادتها إلى شريف مكة وأهدوه هدايا ثمينة[2]. على أن السماح لهم بالحج لم يكن، فيما يبدو، إلا لسنة واحدة فقط.

وحين توفي الشريف سرور، سنة ١٢٠٢هـ، خلفه في الحكم أخوه غالب، الذي قضى السنتين الأوليين من عهده في تثبيت أموره الداخلية[3]. وبعد أن استقر له الوضع رأى أن يحدد سياسته إزاء الدولة السعودية، التي كانت تحرز انتصارًا بعد آخر في كل اتِّجاه. فطلب منها أن ترسل إليه عالمًا من علمائها للتباحث حول مبادئ الدعوة الإصلاحية. ومرة أخرى أرسل قادة الدرعية الشيخ عبدالعزيز الحُصَيِّن إلى مكة المكرمة. لكن علماء هذه المدينة رفضوا أن يتباحثوا معه[4]. ومن المرجح أن رفضهم كان بإيحاء من الشريف نفسه، وأن طلبه من الدولة السعودية إرسال عالم إليه كان الهدف منه التظاهر أمام المسلمين بحسن النية، تمهيدًا لما سيقوم به من أعمال عسكرية ضد السعوديين. وهذا ما قام به في السنة التالية.

وقد يسأل الباحث عن عدم إقدام أشراف الحجاز على التَّدخل العسكري ضد الدولة السعودية حتى سنة ١٢٠٥هـ؛ وبخاصة أن علماء مكة قد أفتوا قبل

---

(١) السباعي، ج٢، ص٨٥.

(٢) ابن غنَّام، ج٢، ص١١٩ - ١٢٠.

(٣) السباعي، ج٢، ص٩١ - ٩٢.

(٤) ابن غنَّام، ج٢، ص١٤٤ - ١٤٥.

أربعين عامًا من ذلك التاريخ بوجوب قتال الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأتباعه إن لم يعدل عن رأيه، وأن الدولة العثمانية قد كتبت إلى الشريف مسعود بموافقتها على أَيِّ خطوة يقوم بها ضد الدعوة والداعية!.

ولَعلَّ من أسباب تَأخُّر التَّدخل الشريفي في شؤون الدولة السعودية: أن الأشراف في بداية الأمر لم يكونوا مدركين تمام الإدراك لخطورة تلك الدولة الناشئة، وأنهم كانوا يعتقدون أن المعارضة النجدية قادرة على القضاء عليها. وكانوا يرون، فيما يبدو، أن منع أتباعها من الحج سيقوِّي معارضيها المحلِّيين من الناحية المعنوية. ثم إن تلك الدولة قد ظهرت أَوَّل ما ظهرت في إقليم العارض، الذي كان النفوذ الخالدي فيه بارزًا قبيل ظهورها. وكان الأشراف يعتقدون أنها إن انتصرت على من عارضها من النجديين فإن حكام الأحساء، زعماء بني خالد، سوف يقضون عليها.

وعندما أصبحت الدولة السعودية تضم نجدًا كلها، وأوشكت أن تستولي على الأحساء ذاتها، أدرك شريف مكة أنه إن لم يَتحرَّك عسكريًّا ضدها فإن القبائل التابعة له في الأراضي الحجازية ستنضم إليها؛ سواء كان انضمامها اقتناعًا بصحة الدعوة الإصلاحية، أو رغبة في مشاركة أتباعها غنائم انتصاراتها المتزايدة، أو خوفًا من التَّعرض لغزواتها الناجحة.

وكانت أَوَّل حملة عسكرية جَهَّزها الشريف غالب ضد الدولة السعودية بقيادة أخيه عبدالعزيز. وقد وصلت هذه الحملة إلى السِّر، وانضمت إليها قبيلتا شَمَّر ومُطَير. لكن الحملة فشلت أمام صمود السعوديين. فخرج الشريف غالب من مكة بتعزيزات لها، وحاصر بلدة الشَّعْراء. ومع ذلك فإن الجيش الحجازي لم يحرز أَيَّ انتصار مما اضطره إلى الانسحاب؛ لا سيما أن موسم الحج قد اقترب. وذلك أمر يَتطلَّب وجود الشريف غالب في مكة[1].

(١) ابن غنَّام، ج٢، ص١٤٤ - ١٥٠؛ ابن بشر؛ ج١، ص١٠٨ - ١٠٩، وقارنهما بدحلان، ج٢، ص٢٦٢.

وهكذا بدا، منذ الغزوة الأولى ضد الدولة السعودية، أن ميزان القوة العسكرية لم يكن في صالح الأشراف. وكان انتصار سعود بن عبدالعزيز العظيم في تأديبه للقبيلتين، اللتين انضمتا إلى حملة الشريف، بعد انسحاب الحملة[1]، ثم ما حَقَّقه من نجاح كبير على حكام الأحساء من الأمور التي زادت من هيبة الدولة السعودية، وأغرت فئات من القبائل التي كانت تابعة لأشراف الحجاز بالانضمام إليها. وإدراكًا من الشريف غالب لخطورة وضعه طلب النجدة من الدولة العثمانية سنة ١٢٠٧هـ، لكنها لم تنجده[2]. فحاول بقواته الذاتية أن يعيد الفئات القبلية التي خرجت عن نفوذه إلى طاعته. لكن الدولة السعودية تَصدَّت له، ورَدَّت على هجماته بهجمات أَشدَّ وأعنف.

وفي عام ١٢١٠هـ جَهَّز الشريف غالب حملة كبيرة بقيادة الشريف ناصر بن يحيى، وسارت هذه الحملة حتى وصلت إلى عالية نجد. وكان عبدالعزيز بن محمد على علم بتحركاتها. فأمر القبائل التابعة له القريبة من تلك الجهة أن تقف مع رئيس قبيلة قحطان، هادي بن قَرْملة، لِصدِّها. وحينما تقابلت القوات السعودية مع قوات الأشراف في الجَمَّانية كان النصر العظيم حليف السعوديين الذين غنموا غنائم كبيرة جدًّا. وفَرَّ الشريف ناصر ومن معه عائدين إلى الحجاز[3].

وكانت معركة الجَمَّانية من المعارك الفاصلة بين أشراف الحجاز والدولة السعودية الأولى. ذلك أنها مَهَّدت الطريق أمام قوات هذه الدولة لتتوغَّل في الأراضي الحجازية، وجعلت موقف الأشراف يَتغيَّر من الهجوم إلى الدفاع.

---

(١) ابن غنَّام، ج٢، ص١٥٠ - ١٥٢؛ ابن بشر، ج١، ص١٠٩ - ١١٠.

(٢) دحلان، ج٢، ص٢٦٣.

(٣) ابن غنَّام، ج٢، ص١٧٣ - ١٧٤؛ ابن بشر، ج١، ص١٣٥ - ١٣٦.

ولَعلَّ هذا كان من أهم الأسباب التي جعلت الشريف غالبًا يطلب من الإمام عبدالعزيز إرسال علماء لمناقشة الأمور الدينية. فاستجاب الإمام، وأرسل وفدًا برئاسة الشيخ حمد بن ناصر بن مُعمَّر[١]. على أنه لم ينتج عن هذا الاتصال أَيُّ تقارب أو تصالح سياسي.

وكانت سنة ١٢١٢هـ من السنوات الحرجة بالنسبة للشريف غالب في مجابهته للسعوديين. ذلك أن ابن ربيعان، رئيس أحد فرعي قبيلة عتيبة الكبيرين، خرج عن طاعته وانضم إلى الدولة السعودية، وفعل مثل فعله رؤساء البُقُوم[٢]. ثم تلا هذين الحدثين المُهمَّين أن تَكبَّد الشريف نفسه هزيمة ساحقة في الخُرَّمة على أيدي القبائل التابعة لتلك الدولة؛ إذ قتل من جيشه أكثر من ألف رجل بينهم عدد من الأشراف. وكان في طليعة القبائل السعودية المذكورة قحطان والدواسر[٣]. وبالإضافة إلى ذلك فقد شهد مطلع تلك السنة فشل الحملة العراقية العثمانية على السعوديين ومقتل قائدها ثُوَيني بن عبدالله[٤]. وبعد ذلك بقليل تَوغَّل سعود بن عبدالعزيز داخل الأراضي العراقية وحَقَّق نجاحًا كبيرًا[٥]. وفي سنة ١٢١٣هـ، استولى نابليون على مصر، وانتشرت إشاعات بأنه سيحاول الاستيلاء على الحجاز. وكان على الشريف غالب أن يَتَّخذ جانب الحيطة والحذر، ويعمل على تحصين جدة[٦]. وهذا أمر يَتطلَّب جهدًا وأموالًا.

---

(١) ابن غنَّام، ج٢، ص٢٠٠ - ٢٠١.

(٢) ابن بشر، ج١، ص١٤٩.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٥١ - ١٥٢؛ دحلان، ج٢، ص٢٦٧.

(٤) ابن غنَّام، ج٢، ص١٨٦ - ١٨٧ و٢٣٢ - ٢٣٥.

(٥) ابن بشر، ج١، ص١٥٠ - ١٥١.

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص١٥٣؛ دحلان، ج٢، ص٢٦٧.

وهكذا أدرك الشريف غالب أنه غير قادر على الصمود أمام الدولة السعودية؛ ناهيك عن مهاجمتها، فجنح إلى الصلح. وجرت اتصالات بينه وبين قادتها نتج عنها اتِّفاق بين الطرفين على تحديد القبائل التابعة لكُلٍّ منهما، والدخول في هدنة مدتها ستة أعوام على أن يسمح للسعوديين بالحج. وكان ذلك الاتِّفاق في جمادى الأولى سنة ١٢١٣هـ[١].

على أن العلاقات الشريفية السعودية شهدت انتكاسة عام ١٢١٧هـ. ذلك أن فئات من القبائل التي حدَّد الاتِّفاق السابق ذكره تبعيتها للشريف غالب، فَضَّلت أن تَنضمَّ إلى الدولة السعودية. وكان من الصعب على هذه الدولة أن ترفض انضمامها إليها. واعتقد الشريف أن السعوديين يتآمرون عليه بإغراء القبائل التابعة له بالخروج عن طاعته. وأرسل وفدًا برئاسة صهره رئيس بني عدوان، عثمان المضايفي، إلى الدِّرْعيَّة ليتفاوض مع قادتها حول الوضع الجديد.

ويبدو أن المضايفي وجد من القادة السعوديين ما جعله يطمئن إلى حسن نواياهم ويثق بهم. وحينما عاد من الدِّرْعيَّة إلى الحجاز اختلف مع الشريف غالب. وانضم إلى جانب الدولة السعودية[٢].

ومهما كانت الأسباب وراء تغيير عثمان المضايفي لموقفه من الشريف، فإن ذلك الحدث كان كسبًا عظيمًا للسعوديين. ذلك أن عثمان قريب من غالب وعلى علم بجوانب ضعفه العسكري.

وفور انضمام المضايفي إلى الدولة السعودية اتَّخذ من بلدة العُبَيلاء -بين تُرَبة والطائف- مركزًا له. وانضمت إليه القبائل التي لا تميل إلى شريف مكة. وهاجمه غالب هناك، لكنه تَصدَّى له بنجاح. ثم أتت إلى عثمان إمدادات من

---

(١) المصدر الأخير نفسه، ص٢٦٧ - ٢٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٧١ - ٢٧٢؛ ابن بشر؛ ج١، ص١٦٢.

القبائل التابعة للدولة السعودية، فزحف بها على الطائف، واستطاع أن يستولي عليها بعد أن هرب منها غالب إلى مكة المكرمة[1].

وبينما كانت الحوادث تسير لصالح آل سعود في نزاعهم مع الشريف غالب انضمت إليهم منطقة عسير، وبرز فيها الزعيم عبدالوهاب أبو نقطة مُتحمِّسًا للدعوة الإصلاحية. وحينما علم سعود بن عبدالعزيز بما جرى في الحجاز بين الشريف غالب وعثمان المضايفي ومن انضم إليه تَوجَّه بقوات كبيرة إلى هناك.

وانضم إليه عثمان ومن معه، فعسكر خارج مكة منتظرًا انتهاء موسم الحج. ولَعلَّه أراد بذلك الانتظار أَلَّا يُعرِّض أرواح الحجاج الأبرياء لأَيِّ خطر قد ينتج من جَرَّاء دخوله تلك البلدة. وأَلَّا يعطي لأمراء قوافل الحج ذريعة ليقفوا مع غالب ضده. ولقد طلب الشريف مساعدة أولئك الأمراء، لكن من الواضح أنهم أدركوا قوة سعود وأتباعه، ورأوا أَلَّا يُعرِّضوا أتباعهم للخطر، فلم يساعدوه. وبعد أن غادروا مكة المكرمة انسحب منها الشريف غالب إلى جدة تاركًا أخاه عبدالمعين أميرًا للبلدة المقدّسة. وأدرك عبدالمعين حرج موقفه، فأرسل إلى سعود بن عبدالعزيز يعرض ولاءه على أن يبقى أميرًا لمكة. فوافق سعود على ذلك. ودخل البلدة دون قتال في الثامن من شهر المُحرَّم سنة ١٢١٨هـ[2]. وهكذا أصبحت مكة المكرمة تحت حكم الدولة السعودية الأولى.

وكما كان متوقعًا قام سعود بن عبدالعزيز بعد دخوله إلى مكة بإزالة ما كان يراه مخالفًا لتعاليم الدين؛ مثل القباب المبنية على القبور. ومما قام به إلغاء الضرائب الجائرة، والمناداة بالمواظبة على الصلوات جماعة خلف إمام واحد[3].

---

(١) دحلان، ج٢، ص١٧٢؛ ابن بشر، ج١، ص١٦٢ - ١٦٣.

(٢) دحلان، ج٢، ص٢٧٤ - ٢٧٦؛ ابن بشر، ج١، ص١٦٣ - ١٦٤.

(٣) عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، رسالة ضمن **الهدية السنية والتحفة النجدية الوهابية**، الطبعة الثانية، المنار، ١٣٤٤هـ، ص٣٥.

ثم كتب رسالة إلى السلطان العثماني، سليم الثالث، يخبره بما حدث، ويطلب منه أن يمنع والي دمشق ووالي القاهرة من إرسال المحمل الذي تصحبه الطبول والمزامير[1]. بعد ذلك تَوجَّه إلى جدة وحاصرها. لكنه وجد أن تحصيناتها قوية، فتركها عائدًا إلى مكة المكرمة، ثم إلى الدِّرْعيَّة[2].

وبعد مغادرة سعود بن عبدالعزيز بقواته الحجاز عاد الشريف غالب من جدة إلى مكة، وأجبر الحامية العسكرية السعودية فيها على الانسحاب منها، وتَسلَّم مقاليد أمورها من أخيه عبدالمعين. ثم قام ببعض الأعمال العسكرية محاولًا استعادة ما فقده من نفوذ في المنطقة المحيطة بها. وتوالت الحروب من جديد بينه وبين السعوديين.

وفي عام ١٢١٩هـ أمر سعود بن عبدالعزيز، الذي أصبح حاكمًا للدولة بعد اغتيال أبيه في الثاني والعشرين من رجب سنة ١٢١٨هـ، ببناء قلعة في وادي فاطمة- على غرار ما فعله السعوديون قرب بعض البلدان التي طاولتهم الحرب- لترصد حركات الشريف العسكرية، وتضايقه من الناحية الاقتصادية. ثم أمر القائد عبدالوهاب أبا نقطة أن يقود جيشًا لمهاجمة جدة. وحين علم الشريف غالب باقتراب عبدالوهاب ومن معه إلى هذه البلدة جمع ما استطاع جمعه من قوات ومعدات، وخرج من مكة لقتالهم. لكنه مُنِي بهزيمة كبيرة أمام القوات السعودية، فعاد بفلول من معه إلى مكة[3].

---

(١) انظر نصها في **تاريخ البلاد العربية السعودية: عهد سعود الكبير**، للعجلاني، دون ذكر مكان وتاريخ الطباعة، ص١١.

(٢) ابن بشر، ج١، ص١٦٥.

(٣) لمزيد من التفصيلات انظر دحلان، ص٢٨٠ - ٢٧٨؛ ابن بشر، ج١، ص١٨٢ - ١٨٣؛ العجلاني،.. **عهد سعود الكبير**، ص٤٥ - ٤٧.

وفي عام ١٢٢٠هـ أمر الإمام سعود بن عبدالعزيز أتباعه في الحجاز وعسير أن يَتَّجهوا إلى مكة المكرمة لمحاصرة الشريف غالب. فوصل أولئك الأتباع إلى ضواحي تلك البلدة قرب موسم الحج. وأدرك غالب ضعف موقفه، فطلب الصلح ورضي بأن يكون تابعًا للإمام سعود على أن يبقى أميرًا لمكة. فأجيب إلى طلبه[١]. وكانت المدينة المنورة قد أعلنت ولاءها لسعود في السنة ذاتها[٢]، وهكذا أصبحت الحجاز كلها جزءًا من الدولة السعودية الأولى.

ولَعلَّ من أهم الأسباب التي ساعدت الدولة السعودية على تحقيق النصر في نزاعها مع الشريف غالب ما يأتي:

أ- أن أكثر القوات السعودية كانت تقاتل عن عقيدة آمنت بصحتها، ونذرت أنفسها لحمايتها ونشرها.

ب- أن الدولة السعودية حينما دخلت مرحلة الصراع المسلَّح مع الشريف غالب كانت قوية. فقد وَحَّدت منطقة نجد كلها، ووَحَّدت معها المنطقة الشرقية من جزيرة العرب أو كادت تُوحِّدها، كما انضمت إليها خلال ذلك الصراع منطقة عسير. وبذلك أصبحت الحجاز- باستثناء ساحلها- محاطة بمناطق نفوذ سعودية.

ج- تَخلِّي عثمان المضايفي- بما كان يَحتلُّه من مكانة- عن الشريف غالب وانضمامه إلى الدولة السعودية.

د- أن فئات من القبائل الحجازية انضمت إلى الدولة السعودية؛ لاقتناع زعمائها بمبادئ الدعوة الإصلاحية التي تساندها تلك الدولة، أو رغبة

---

(١) ابن بشر، ج١، ص١٨٣ - ١٨٥.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٨٦. ولمزيد من التفصيل انظر العجلاني، **عهد سعود الكبير**، ص٤٧ - ٥٤؛ محمد عبدالباري، وترجمة بحثه: «**الوهابيون الأوائل وأشراف مكة**» **مجلة الجمعية التاريخية الباكستانية**، عدد ٣، ١٩٥٥م، ص٩١ - ١٠٤.

في مشاركته غنائم غزواتها الناجحة في أكثر الأحيان، أو خوفًا من التعرض لهجماتها.

هـ- تدهور الوضع الاقتصادي للشريف غالب نتيجة الحروب التي كان الإنفاق عليها باهظًا من ناحية، والتي سَبَّبَت قلة الحجاج في تلك السنوات من ناحية أخرى.

و- عدم مساعدة الدولة العثمانية للشريف غالب، لأنها كانت غير مُهتمَّة بالدولة السعودية في بداية الأمر، ثم أصبحت مشغولة بمشكلاتها الداخلية والخارجية؛ وبخاصة الغزو الفرنسي لمصر وما تلاه من تطورات.

ومن نتائج دخول الحجاز تحت حكم الدولة السعودية:

أ- أن مساحتها ازدادت كثيرًا، فأصبحت تمتد من الخليج العربي إلى البحر الأحمر.

ب- أن هيبتها ارتفعت في الأقطار الإسلامية؛ إذ أصبح الحرمان الشريفان في يدها، وهي الدولة المتمسكة بالشريعة إلى أقصى حَدٍّ، المُصمَّمة على منع كل ما من شأنه أن يخالف تعاليم الإسلام.

ج- تَوقُّف الحج من بعض الأقطار الإسلامية لعدم رضا زعمائها بالتقيُّد بما تراه الدولة السعودية من الدين، وعدم إقلاع قادة حجاجها عمَّا هو من البدع، وإصرارهم على أن تصحبهم قوات عسكرية؛ الأمر الذي رأته تلك الدولة مُهدِّدًا لسلطتها في الحجاز، وقد أَثَّر ذلك على الأوضاع الاقتصادية للبلاد.

د- إصابة الدولة العثمانية بضربة معنوية هائلة، لأن سلاطينها حرصوا دائمًا على أن يظهروا بمظهر حُرَّاس الحرمين الشريفين

وخُدَّامهما. وفي ذلك ما فيه من كسب زعامة العالم الإسلامي من الناحية المعنوية. وإذا كان السلاطين العثمانيون قد أدركوا خطر الدولة السعودية على نفوذهم قبل استيلائها على الحجاز، وحاولوا القضاء عليها عن طريق باشا بغداد فعجزوا، فإنهم صَمَّموا بعد ذلك الاستيلاء على مضاعفة الجهود، والبحث عمَّن هو في وضع أحسن من وضع ذلك الباشا، ليقوم بمحاربتها. وقد وجدوا ضالتهم المنشودة في حاكم مصر محمد علي باشا.

٣- جنوبي غرب البلاد:

أ-عسير:

اتَّجهت أنظار قاعدة الدرعية إلى مَدِّ نفوذهم على منطقة عسير، نتيجة استيلائهم على الجهات المتاخمة لها من الناحية الجنوبية الشرقية. وفي عام ١٢١١هـ بدأ نشاطهم في هذا المجال بأن أرسلوا جيشًا كبيرًا بقيادة ربيع بن زيد الدوسري، الذي أغار على فئات من شهران، وقتل خمسين رجلًا منهم، وغنم إبلاً وغنمًا كثيرة[١]. وفي العام الذي تلاه سار ربيع بأتباعه إلى بِيْشة، وحاصر سكانها حتى اضطروا إلى مبايعته على السمع والطاعة. وكان رَدُّ فعل الشريف غالب لإيقاف المدِّ السعودي في تلك الجهة سريعًا؛ إذ قاد جيشًا ضخمًا في العام نفسه، وتَمكَّن من الاستيلاء على البلدة المذكورة. لكن القوات السعودية انتصرت عليه انتصارًا عظيمًا في الخُرْمة وهو عائد من هناك[٢].

---

(١) ابن بشر، ج١، ص١٤٧.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٥١.

ومن الواضح أن معركة الخُرَمة، التي أجبرت الشريف غالبًا على مصالحة الدولة السعودية، قد أَكَّدت لكثير من قبائل عسير قوة تلك الدولة، وهيأتها للدخول في طاعتها. وفي عام ١٢١٣هـ غزا ربيع بن زيد الدوسري بِيْشة مرة أخرى، وأدخلها تحت الحكم السعودي. وعَيَّن الإمام عبدالعزيز بن محمد سالم بن شُكْبان، أحد زعماء تلك الجهة، أميرًا لها[١].

وإذا كان دخول بِيْشة في طاعة آل سعود خطوة مَهَّدت الطريق أمامهم إلى عسير، فإن اقتناع عبدالوهاب أبي نقطة وأخيه محمد بالدعوة الإصلاحية النجدية وانضمامهما إلى الدولة السعودية كانا أَهمَّ العوامل التي أدخلت منطقة عسير؛ سراة وتهامة، تحت نفوذ هذه الدولة. ولقد بقي عبدالوهاب مخلصًا كل الإخلاص لقادة الدرعية، وبذل جهودًا عظيمة ساهمت في دخول الحجاز والجهات الجنوبية الغربية من جزيرة العرب في طاعتهم. وظل سكان عسير من أكثر الناس إخلاصًا للدعوة الإصلاحية وللحكم السعودي، كما شهدت بذلك مواقفهم البطولية أمام غزوات محمد علي باشا.

ب- المخلاف السليماني (جازان):

وكانت أخبار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد وصلت إلى اليمن منذ قيام الدولة السعودية الأولى. وممن اتَّفقت مبادئها مع ما كان يؤمن به العالم الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني، الذي أرسل إلى الشيخ محمد قصيدة طويلة يثني فيها عليه، والذي بذلت المعارضة النجدية جهودًا مكثفة لتشويه سمعة الدعوة والداعية لديه[٢]. ولذلك فإنه من المرجح أن أخبار تلك الدعوة قد وصلت، أيضًا، إلى المخلاف السليماني (منطقة جازان) في الفترة

(١) المصدر نفسه، ج١، ص١٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٦٧ - ٧١؛ الشيخ البسام، ج٣، ص٩٤٧ - ٩٤٨.

المذكورة أو بعدها بقليل. ذلك أنه كانت توجد بين علماء اليمن وعلماء المخلاف صلات وثيقة.

على أن بداية انتشار الدعوة الإصلاحية في المخلاف السليماني حدثت سنة ١٢١٥هـ على أيدي أحمد بن حسين الفَلقي من صبيا، وعرار بن شار أمير بني شُعْبة. وكان الفَلقي قد التقى بأتباع الدعوة في موسم الحج سنة ١٢١٤هـ، وأُعجِب بما سمعه منهم. ثم وفد إلى الدِّرْعيَّة لمعرفة المزيد عن تلك الدعوة والاتصال بزعماء دولتها. وقد عَيَّنه الإمام عبدالعزيز بن محمد داعية في بلاده، وأرسل معه رسالة إلى رؤساء المخلاف وأهاليه يَحثُّهم فيها على التعاون معه لنشر الدعوة الإصلاحية[١]. وانتشرت هذه الدعوة بسرعة بين السكان. وحينما أدرك بعض الزعماء هناك ما قد يترتب على ذلك من أبعاد سياسية وقفوا ضدها عسكريًّا. وكانت المعركة التي دارت بين مُؤيِّديها ومعارضيها في صالح المعارضين[٢]. فسارعت الدولة السعودية إلى إرسال تعزيزات لمؤيِّديها، واضطر المعارضون، فيما يبدو، إلى المهادنة.

وكان هناك تنافس على إمارة أبي عريش بين الأمير علي بن حيدر وعمِّه الشريف حمود بن محمد- ولقبه أبو مسمار-. وحينما رحلت التعزيزات السعودية عن المخلاف السليماني نجح حمود في كسب الجولة على ابن أخيه، وتَسلَّم مقاليد الأمور في البلاد[٣]. وكان لجهوده أثر كبير في تحقيق النصر لمعارضي الدعوة ضد مُؤيِّديها قبل وصول التعزيزات المذكورة سابقًا إليهم[٤].

---

(١) ميّ العيسى، ص٧٣.

(٢) عبدالرحمن البهكلي، **نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود**، تحقيق محمد العقيلي، دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، ١٤٠٢هـ، ص٧٢ و٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ص١٠٨ - ١٠٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٩٨ - ٩٩.

وعندما آل إليه الأمر كان النفوذ السعودي قد شمل جزءًا كبيرًا من المخلاف. فبدأ بمقاومة ذلك النفوذ ومحاربة أنصار الدعوة حتى أضعفهم. وكانت الأمور حينذاك قد استقرت للدولة السعودية في منطقة عسير. فَهبَّت تلك الدولة، وأرسلت إلى أنصارها في المخلاف نجدات عسيرية بقيادة عبدالوهاب أبي نقطة. وحينما أدرك الشريف حمود ضعف موقفه طلب النجدة من إمام صنعاء. لكن هذا الإمام فَضَّل أَلَّا يتدخل في الصراع الدائر في المخلاف لضعف جبهته الداخلية من ناحية، ولعلمه بقوة الدولة السعودية من ناحية أخرى. فما كان من حاكم أبي عريش إلا أن أعلن طاعته لهذه الدولة، وتَمسُّكه بالمبادئ التي قامت عليها. وقد أبقاه قادتها في الإمارة، لكنهم ربطوه إداريًّا بأمير عسير وتهامة عبدالوهاب أبي نقطة[1].

ومن الواضح أن الوضع الذي وصل إليه الشريف حمود كان بعيدًا كُلَّ البعد عن إرضاء طموحه. فقد خرج من تجربته المرَّة ناقمًا على إمام صنعاء الذي لم ينجده وقت حاجته إليه، وساخطًا على ربطه إداريًّا بأمير كان يرى أنه يفوقه مقدرة وأَهميَّة. ولذا بدأ يُخطِّط للانتقام من الطرفين. ورأى أن مهاجمة الأراضي التابعة لإمام صنعاء تُحقِّق غرضين: أحدهما معاقبة ذلك الإمام على عدم مساعدته له، وثانيهما الظهور أمام قادة الدولة السعودية بمظهر القائد المخلص الكفء، مما يُمهِّد لاستقلاله عن أمير عسير. وجمع ما استطاع جمعه من قوات، ووجهها إلى الأراضي اليمنية، فاستولت على مُوْر واللُّحَيَّة[2]. وبعد هذا النجاح العسكري أرسل وفدًا إلى الدِّرْعيَّة طالبًا من قادتها فصله إداريًّا عن أمير عسير، وربطه مباشرة بهم. فاستجابوا لطلبه[3].

---

(١) انظر تفصيل ذلك في المصدر نفسه، ص١٢٧ - ١٣٨؛ عبدالرحيم، **الدولة السعودية**، ص ١٧٠ - ١٧٣.

(٢) البهكلي، ص١٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٢ و١٦٨.

وقد أَدَّى نجاح الشريف حمود في الانفصال عن أمير عسير إلى تَوتُّر العلاقات بينهما. وانضم عرار بن شار إلى صف حمود[1]. وبلغ التوتُّر بين الطرفين مدى جعل عبدالوهاب يُهيئ لغزو المناطق التابعة لحمود. وأمام هذا الوضع طلب الإمام سعود من هذين الأميرين أن يفدا إليه لِحلِّ المشاكل القائمة بينهما. فوفد إليه عبدالوهاب، لكن حمودًا أرسل ابنه نيابة عنه، مُدَّعيًا أن غيابه عن منطقته قد يُعرِّضها لغزو يمني. ويبدو أنه لم يُتَوصل إلى حَلٍّ شامل للمشاكل المناقشة. ومع أن سعودًا كان، فيما يبدو، يثق بإخلاص عبدالوهاب أكثر مما يثق بإخلاص حمود، فإنه أبقى الأخير مستقلًّا إداريًّا عن الأَوَّل[2].

وظَلَّ التنافس قائمًا بين أميري عسير وأبي عريش. وكان من مظاهره تسابقهما على إيجاد نفوذ لهما في المناطق اليمنية التي لم تكن قد دخلت بعد تحت النفوذ السعودي. لكن أمير أبي عريش نال قصب السبق؛ إذ تَمكَّن من ضم زبيد والاستيلاء على الحُدَيدة، وتَوغَّلت قواته حتى قرب عدن[3].

ويبدو أن انتصار الشريف حمود في الأراضي اليمنية، وما يوجد في نفس الإمام سعود من شكوك في إخلاصه له، قد دفعا ذلك الإمام إلى أن يطلب منه مهاجمة صنعاء ذاتها[4]؛ رغبة في التوسع من ناحية، وامتحانًا لصدق نوايا ذلك الشريف من ناحية ثانية. لكن حمودًا تقاعس في تنفيذ ما طلب منه[5]. ولَعلَّ من أَهمِّ ما حمله على ذلك اعتقاده بصعوبة الهجوم على العاصمة اليمنية، وخوفه حين انشغاله بذلك من هجوم أمير عسير على منطقته. بل إن هناك من المصادر

---

(١) ميّ العيسى، ص١٠٠.

(٢) البهكلي، ص١٨٤ و١٩٣؛ ابن بشر، ج١، ص١٩٤.

(٣) ميّ العيسى، ص١٠٥ – ١٠٧؛ عبدالرحيم، **الدولة السعودية**، ص١٧٤ و١٨٠.

(٤) ابن بشر، ج١، ص١٩٤.

(٥) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

ما يشير إلى أنه اتَّصل بإمام صنعاء، وتصالح معه[1]. وأمام هذا الموقف طلب الإمام سعود من عبدالوهاب أبي نقطة أن يقوم بمهاجمة الشريف حمود. ولم يكن شيء أَحبَّ إلى نفس أمير عسير حينذاك من تلبية هذا الطلب. وحين اجتمعت لديه قواته ومن انضم إليها من المناطق السعودية الأخرى زحف على أراضي المخلاف السليماني. ودارت معركة عنيفة بينه وبين حمود هناك سنة ١٢٢٤هـ. ومع أن عبدالوهاب قُتِل في تلك المعركة إلا أن القوات التي كانت معه انتصرت. وانسحب الشريف حمود إلى قلعته في أبي عريش[2].

وتوالت الحروب بين الشريف حمود وأمير عسير الجديد، طامي بن شُعَيب، حتى تَمكَّن هذا الأخير من انتزاع اللُّحَيَّة والحُديدَة من الأول. وإدراكًا من حمود لضعف موقفه العسكري طلب العفو من الإمام سعود على أن يتنازل عن بعض المناطق التابعة له، ويدفع خراجًا سنويًّا إلى خزينة الدولة السعودية. فوافق الإمام على طلبه. لكن ذلك لم يَتمَّ إلا سنة ١٢٢٦هـ[3]. وهي السنة التي بدأت فيها الحملة العثمانية المصرية ضد آل سعود. وكان من نتائج تلك الظروف أن استعاد إمام صنعاء الحديدة وقسمًا من بلدان اليمن الأخرى[4].

وهكذا استطاعت الدولة السعودية الأولى أن تنشر مبادئ الدعوة الإصلاحية في المخلاف السليماني، وأن تدخله تحت طاعتها، وأن تضم إليها مناطق من أراضي إمام صنعاء، لكن نفوذها هناك كان مضطربًا نوعًا ما، وعرضة للمَدِّ والجزر بدرجة كبيرة.

---

(١) ميّ العيسى، ص١١٥.

(٢) ابن بشر، ج١، ص١٩٤ - ١٩٥.

(٣) انظر تفصيل ذلك في البهكلي، ص٢٥٥ و٢٧٧؛ عبدالرحيم، **الدولة السعودية**، ص١٨٢ - ١٨٤.

(٤) المصدر نفسه، ١٨٥.

جـ- نجران:

وكانت علاقة زعماء نجران بالدولة السعودية سيئة. ومن أَدلَّة ذلك ما سبق ذكره من غزو الرئيس النجراني، حسن بن هِبَة الله المَكْرمي، لأراضي هذه الدولة سنتي ١١٧٨ و١١٨٩هـ، وفي سنة ١٢٠٢هـ استنجد المعارضون لآل سعود في وادي الدواسر برئيس نجران، فأنجدهم، لكن المؤيِّدين لآل سعود في ذلك الوادي صمدوا أمام المعارضين والرئيس النجراني. فانسحب ذلك الرئيس إلى بلاده[١].

وفي سنة ١٢١٠هـ غزا مبارك بن هادي بن قَرملة ناحية نجران، وقاتل باديتها، فانتصر عليها وكسب منها خيلًا وأموالًا[٢]. وبعد ذلك بعشر سنوات غزتها قوات سعودية قَدَّرها ابن بشر بثلاثين ألف مقاتل. وكانت بقيادة عبدالوهاب أبي نقطة، أمير عسير، وفهاد بن شكبان، زعيم منطقة بيشة. وإبراهيم بن مبارك، رئيس الوداعين من الدواسر. فوقع قتال شديد بين القوات السعودية وأهل نجران. وقتل من جيش عبدالوهاب كثيرون، في طليعتهم إبراهيم بن مبارك رئيس الوداعين. فبنى عبدالوهاب قصرًا هناك، ووضع فيه مرابطين لمضايقة النجرانيين عسكريًّا واقتصاديًّا. ثم عادت بقية القوات السعودية إلى أوطانها[٣].

وفي سنة ١٢٢٤هـ حارب النجرانيون مع أبي مسمار ضد أبي نقطة[٤]. ومع أن زعماء نجران بعثوا مُمثِّلًا عنهم إلى الإمام سعود، وأن ذلك الإمام أرسل إليهم رسالة مع مُمثِّلهم شرح فيها المبادئ التي تسير عليها دولته، فإنه لا يبدو أن منطقة نجران قد خضعت خضوعًا تامًّا للحكم السعودي حينذاك، وإن كانت قبائلها قد أَدَّت الزكاة للإمام سعود[٥].

---

(١) ابن بشر، ج١، ص١٠٢ - ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٨٦ - ١٨٧.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص١٩٤.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٢. وانظر أيضًا، مقبل الذكير في مسودة تاريخه عند حديثه عن نجران، مكتبة كلية الآداب، جامعة بغداد، رقم ٥٦٩.

٤- جهات الخليج وعمان:

أ-قطر:

بدأت غارات السعوديين على قطر سنة ١٢٠٢هـ[١]؛ وذلك قبل أن يستولوا على منطقة الأحساء. وكانت أهم بلدة قطرية حينذاك الزبارة مقر آل خليفة[٢]. وبعد ان استتب الأمر لآل سعود في المنطقة الشرقية تَمكَّنوا من الاستيلاء على قطر، واضطر حكامها المعارضون لهم إلى مغادرتها والتوجُّه إلى البحرين، حيث القسم الآخر من إماراتهم. وبذلك أصبحت قطر جزءًا من الدولة السعودية الأولى[٣].

---

(١) ابن بشر، ج١، ص١٠٠.

(٢) في القرن الحادي عشر الهجري غادر آل خليفة وآل صباح والجلاهمة الهدَّار في الأفلاج، ونزلوا الزبارة، وكان سبب مغادرتهم بلادهم حدوث نزاع بينهم وبين أبناء عمومتهم من جميلة من قبيلة عنزة، وقد انتصر عليهم هؤلاء بمساعدة الدواسر. ثم اضطروا إلى النزوح من الزبارة إلى الكويت، التي كانت تحت حكم بني خالد، ومنحهم إياها زعيم هذه القبيلة. واتفقوا على أن يتولَّى سليمان بن أحمد، كبير آل صباح، الرئاسة، وخليفة بن محمد، كبير آل خليفة، التجارة، وجابر العتبي، كبير الجلاهمة، العمل في البحر على أن يقتسموا الأرباح بالتساوي، وبعد خمسين عامًا انفصل محمد بن خليفة وغادر الكويت إلى الزبارة. وبعد استقراره فيها اختاره أهلها شيخًا لها. ثم تولَّى الحكم بعده ابنه خليفة المتوفى سنة ١١٩٧هـ. فخلفه أخوه أحمد. وفي عهد أحمد نشبت حروب بين أهل البحرين- بإيعاز من فارس التي كانت تحكمها من ١٠١٨هـ إلى ١١٩٨هـ. وبين أهل الزبارة فهزم أهل البحرين، وفرَّ زعماؤهم إلى سواحل إيران تاركين البحرين دون حماية. فدعا سكانها أحمد بن محمد بن خليفة لحكمهم. وباستيلائه على البحرين انتهى حكم فارس لها. وظل أحمد ينتقل بين الزبارة والبحرين. ثم استقر ابنه في المنامة.

وفي أواخر القرن الحادي عشر الهجري غادر آل ثاني الوَشْم، ونزلوا يبرين، الواقعة جنوب قطر، ثم هاجروا من هناك إلى الزيارة حيث ولد ثاني. وبعد وفاته اتخذ ابنه محمد البِدِّع- أحد أحياء الدوحة- مقرًّا له. وكان طموحًا، فدخل مع آل خليفة في معارك أنهاها تدخُّل العثمانيين عام ١٢٨٨هـ،وفي سنة ١٢٩٥هـ توفي محمد وخلفه ابنه قاسم مؤسس إمارة آل ثاني المستقلة.

(٣) ابن بشر، ج١، ص١٧٧؛ **لمع الشهاب**، ص٧٧.

ب- البحرين:

أما البحرين فإن سلطان عمان غزاها سنة ١٢١٦هـ، واستطاع أن يستولي عليها. فهرب آل خليفة منها عائدين إلى الزبارة. وبعد ذلك تَمكَّنوا، بمساعدة الدولة السعودية، من إبعاد العمانيين عن البحرين[١]. لكن السعوديين أصبح لهم نفوذ كبير فيها. ثم حدثت مشكلات بين آل خليفة وآل سعود، ودارت بينهما مفاوضات نتج عنها عودة السلطة الحقيقية في تلك البلاد إلى حكامها من آل خليفة[٢].

جـ- الكويت:

وأما الكويت فقد أصبحت مُهمَّة من الناحية التجارية؛ وبخاصة بعد احتلال الفرس للبصرة بين عامي ١١٩٠ و١١٩٣هـ. ذلك أن بعض تجار هذه المدينة المحتلَّة هاجروا إلى الكويت، كما انتقل إليها مركز مُمثِّل شركة الهند الشرقية البريطانية في المنطقة[٣]. ولَعلَّ إيواءها لزعماء بني خالد المعادين لآل سعود كان سببًا لغزو السعوديين لها سنة ١٢٠٨هـ[٤]. وفي عام ١٢١٢هـ تعاون الكويتيون مع حملة ثويني بن عبدالله الموجهة ضد السعوديين. فكان ذلك سببًا، فيما يبدو، لإرسال السعوديين سَرِيَّة ضد الكويت[٥]. لكن الكويت لم تنضم إلى الدولة السعودية، ولم تدخل تحت حكمها مثل دخول قطر[٦].

---

(١) ابن بشر، ج١، ص١٦١.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٩٦ - ١٩٧؛ عبدالرحيم، **الدولة السعودية**، ص٩٨ - ١٠٠.

(٣) المصدر الأخير نفسه، ص١٠٢.

(٤) ابن غنَّام، ص١٦٩؛ ابن بشر، ج١، ص١٣٣.

(٥) ابن غنَّام، ج٢، ص٢٢٤؛ ابن بشر، ج١، ص٤٩.

(٦) لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى كتاب عبدالله العثيمين، **العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت**، ط٢، الرياض، ١٤١١هـ.

د- عمان:

وحينما وصلت طلائع القوات السعودية إلى جهات عمان كان حاكم مسقط سلطان بن أحمد ابن سعيد. وكان في طليعة قادة تلك القوات رجل اسمه الحِرْق. فأطاعت له قبائل بني ياس، وآل نعيم وبني قتب والظواهر والشوامس[1]. وفي عام ١٢١٨هـ (١٨٠٣) عقد معه السلطان معاهدة يدفع إليه بموجبها مبلغ ١٢٠٠٠ ريال سنويًّا، ويسمح لأتباع الدِّرْعيَّة بالدعوة في مسقط[2]. وكان تَحمُّس القواسم في رأس الخيمة وما حولها لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب كسبًا عظيمًا لآل سعود في جهودهم العسكرية ضد الأراضي العمانية.

وحين توفي سلطان بن أحمد، سنة ١٢١٩هـ تَولَّى الحكم بعده بدر بن سيف، الذي كان متعاطفًا مع الدولة السعودية. لكن حكمه لم يستمر؛ إذ ثار عليه سعيد بن سلطان، وقتله. وقامت حروب بين سعيد والسعوديين وأتباعهم في جهات عمان. فانتصروا عليه في أكثرها. على أن مقتل القائد الشهير مطلق المطيري، سنة ١٢٢٨هـ؛ إضافة إلى انشغال الدولة السعودية بالحملة العسكرية العثمانية المصرية، كان من الأمور التي اضطرت القوات السعودية إلى أن تَتخلَّى عن أماكن سبق أن استولت عليها من أراضي سلطان عمان، وأن تَتمركز في البُرَيمي[3].

---

(١) حميد بن رزيق، **الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين**، وزارة التراث القومي والثقافة بعمان، ١٣٩٧هـ، ص٤٣٢؛ كيلي، **بريطانيا والخليج**، ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث القومي والثقافة بعمان، القاهرة ١٩٧٩م، ج١، ص١٦١ - ١٦٣.

(٢) المرجع الأخير نفسه، ص١٦٦.

(٣) لمزيد من التفصيلات انظر ابن رزيق، ص٤٣٨ - ٥٢١؛ كيلي، ج١، ص١٦٦ - ٢١٠؛ عبدالرحيم، **الدولة السعودية**، ص١٠٥ - ١١٦؛ محمد الشعفي، العلاقات السعودية العثمانية: ١٨٠٠ - ١٨١٨م، **مجلة كلية الآداب**، بجامعة الملك سعود، العدد الأول، ١٣٩٠هـ، ٢٠٦ - ٢٢٩.

٥- أَوج اتِّساع الدولة:

بعد أن أكملت الدولة السعودية الأولى توحيد منطقة نجد في مستهل القرن الثالث عشر الهجري بدأت تَتَّسع في كل اتِّجاه. وكان النصر حليفها في أكثر خطواتها التوحيدية حتى بلغت ما بلغته من اتِّساع. فمن الشرق دخل تحت حكمها شرقي الجزيرة العربية؛ الأحساء والقطيف وقطر. وأصبح لها نوع من النفوذ القوي فترة في البحرين. ومن الناحية الجنوبية الشرقية دخلت تحت حكمها كثير من الجهات التي تَكوَّنت منها في العصر الحديث دولة الإمارات العربية المتحدة، كما دخلت أجزاء من أراضي سلطنة عُمان وبخاصة غير الساحلية. ومن الغرب أصبحت الحجاز كلها منطقة سعودية. أما من الناحية الجنوبية الغربية فقد انضمت إليها منطقة عسير، ثم تبعتها منطقة المخلاف السليماني، كما أدخلت تحت نفوذها أجزاء كبيرة من أراضي إمام اليمن وبلدانه المُهمَّة؛ وبخاصة الساحلية. وقد ازداد توغلها في الساحل اليمني حتى أوشكت أن تستولي على عدن. ومن الجنوب امتدت رقعتها حتى الربع الخالي. بل إن غاراتها وصلت إلى مشارف حضرموت، أما من ناحية الشمال فقد أدخلت تحت طاعتها جميع أجزاء الجزيرة العربية الشمالية، ومَدَّت لها نوعًا من النفوذ في أماكن من العراق والشام، تَمثَّل في دفع بعض القبائل هناك الزكاة إليها.

وهكذا تَوحَّدت معظم مناطق الجزيرة العربية في دولة لم يُرَ لها مثيل من قبل باستثناء فترة قصيرة من فجر التاريخ الإسلامي.

*****